أبطال سوريا المجهولون

كريستي كارنِجي فوجيو، دكتوراه في القانون، ماجستير في الآداب

مؤثرةٌ هي صورُ وقصصُ الأطباء الذين يعملون في أتون الصراع وتحت أشكال التهديد الأخرى لأسبابٍ كثيرة. ومدهشةٌ شجاعةُ هؤلاء الأطباء ومدهشٌ كذلك التزامُهم تجاه مرضاهم. لا شيءَ يبرر الهجومَ في أي صراع على مَن يعتني بالآخرين. وإنّ استهدافَ عاملي الصحةِ والبنيةَ التحتيةَ الطبية يمكن أن تكونَ له آثارٌ صحيةٌ خطيرة وبعيدةُ المدى على المجتمعات المحلية. لكنَّ العنفَ بسوريا عنفٌ لا هوادةَ فيه، إذ تتعرض المشافي وسيارات الإسعاف ويتعرض عاملو الصحة للهجوم بصفةٍ مستمرة لمجرد أنهم يقومون بعملهم ويحاولون مداواةِ الأبدانِ الجريحةِ المحطمة في هذه الأزمةِ الطويلةِ الطاحنة. يصعب كثيراً على المرء أن يستمعَ إلى قصص هؤلاء الأطباء ويَستبطنَ المخاطرَ التي يواجهون في كل يوم، ثُم يقولَ لهم مِن ثَم "مع السلامة"، لأن الهجومَ القادمَ قد يزهق أرواحهم.

وبالرغم من اليأس، هناك إلى جانب ذلك قصصٌ أخرى، مؤثرةٌ كذلك، لأطباءَ غادروا سوريا ويعملون الآن مع اللاجئين السوريين في بلدان الجوار. هؤلاءِ هم أنفسُهم لاجئون، لا يملكون تصريحاً للعمل، ولا يجدون ركناً يأوون إليه لا يَلقوْن فيه عَنَتاً وتَمييزاً في المعاملة، يعيشون أيامَهم يوماً بيوم ويكابدون لإعالة أُسَرهم في بلدانٍ لا ترغب بمنحهم وضعَ إقامةٍ ثابتاً. يشعر كثيرٌ منهم بالذنب أنْ نجوْا بأنفسهم وتركوا أهليهم وأصدقاءهم وراءهم ومَن مات ومَن بقي من أطباءَ آخرين بسوريا يتحملون عبءَ معالجةِ أخطرِ الجروح في أحلك الظروف. يصعب فهمُ الأثر النفسي لشعور الناجي بالذنب، خاصةً على الناس العاديين، وتزيدُ قِلةُ الدعمِ النفسي المناسب المتاحِ للاجئين مِن حدة المشاعر العاطفية التي يكابدها كثيرٌ من الناس الذين يعانون من أزمة كهذه.

ومع ذلك، لا يستسلم هؤلاء الأطباء اللاجئون ولا ينغمسون في الرثاء للذات. بل ينتظمون في المهجر لدعم أبناء بلدهم النازحين. وفيما يجرجر الجرحى والمعذبون والجائعون أنفسَهم ليعبروا الحدودَ السورية، لا يَعدَم هؤلاء الأطباء وسيلةً لمعالجة المرضى من هؤلاء والعنايةِ بالحالاتِ الأكثرِ إلحاحاً بين صفوفِهم، معرِّضين أنفسَهم وأهليهم للخطر، وهم يعملون تحت عيون الرقابة في أوضاعِ هجرةٍ يشوبها الغموض للاعتناء بالعددِ المتعاظمِ من السوريين الباحثين عن الأمن في البلدان المجاورة.

كذلك يوفر هؤلاء الأطباء صلةَ وصلٍ رئيسية بين سوريا وبين العالم الخارجي، فيرتّبون للحصول على تمويل لشراء الإمدادات الطبية ونقلِها إلى داخل سوريا، وينظمون دوراتٍ تدريبية للأطباء السوريين، ويساعدون المنظماتِ غير الحكومية على تنسيق جهودِها لمساعدة المشردين داخل سوريا وخارجها. يلتقي هؤلاء الأطباء مع مسؤولي الأمم المتحدة وموظفي السفارات وأعضاءَ المنظمات غير الحكومية والصحفيين وغيرَهم لإضفاء لمسةٍ إنسانية على هذا الصراع ومساعدتِنا على فهم الكيفية التي نستطيع بها العمل على مساعدتَهم. كذلك، ويقوم كثيرٌ منهمُ اليوم بعمل توثيقٍ طبي لما يُرتكب داخل الحدود السورية من انتهاكات لحقوق الإنسان – من أعمالِ تعذيبٍ وعنفٍ جنسي وغيرِ ذلك من أشكال المعاملة الوحشية. ويبنون جسماً من الأدلة الطبية التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك ما ارتُكِب في هذا الصراع مِن فظائع في السنوات الثلاث الماضية. وسوف يكونون جاهزين للإدلاء بشهاداتهم في عمليات العدالة والمساءلة في المستقبل، وبيانِ صحةِ ما انتهوْا إليه من نتائج.

يعمل كثيرٌ من هؤلاء الأطباء سبعةَ أيامٍ في الأسبوع وغالباً طوال الليل. فأنا أستلك مِن بعضهم رسائلَ عملٍ إلكترونية في الساعة الثانية صباحاً بتوقيتهم المحلي، وأعلم أني لو سألتُهم عن شيء لَأجابوني على سؤال أطرحه عليهم تقريباً في أي وقتٍ من اليوم. وأعلم أنَّ ما يحركهم ليست الرغبةُ في مساعدة ناسِهم وإعادةِ بناءِ بلدهم فحسب، بل كذلك وفي الغالب شعورُهم بالذنب لتركِهم سوريا. ولولا هؤلاء الأطباء الملتزمين التزاماً لا يصدَّق، ما كان في استطاعة المنظمات، ومنها منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان، توفيرُ مساعدةٍ فعالة للشعب السوري. فنحن ممتنون لجهودهم وفخورون بأن نكونَ أصدقاءَ وزملاء لهم.